أبو بكر البغدادي زعيم داعش المرتل للقرآن

لعل من الأهمية أن نعيد قراءة وتلخيص ما كتبه ويليام مكانتس، الباحث في مركز سياسات الشرق الأوسط، ومعهد بروكنجز،عن "المؤمن" المنعزل الانطوائي، المرتل للقرآن، الذي بالكاد يُسمع صوته عندما يتحدث، إلى زعيم لتنظيم الدولة "داعش"، وكيف أصبح من يقضى جل وقته في المسجد، منهمكًا في دراساته الدينية، إلى متعصب يفتى بحرق وقطع رقاب مخالفيه.

تتبع مكانتس السيرة الذاتية لإبراهيم عواد، منذ ولد في سنة ١٩٧١ في سامراء، وهي مدينة عراقية قديمة تقع على الحافة الشرقية من المثلث السُني شمالي بغداد، حتى أصبح خليفة.

كان إبراهيم نجلَ رجلٍ تقي يدرّس تلاوة القرآن الكريم في مسجدٍ محلي. وكان منطويًا، قليلَ الكلام، الجيران الذين عرفوه يتذكرونه كشخصٍ خجول لا يختلط بالآخرين. وحتى عندما كان الناس يصطدمون به خلال مباريات ودية في كرة القدم ، وهي رياضته

المفضلة، كان يظلُّ محتفظًا بهدوئه ولا يبدو عليه أي انفعال.

في وقتٍ مبكر، كانت كُنية إبراهيم هي "المؤمن"، وعندما لم يكن في المدرسة، كان يقضي معظم وقته في المسجد المحلي، منهمكًا في دراساته الدينية، وعندما يعود إلى بيته في نهاية اليوم، حسبما أفاد شامسي، أحد أشقائه، كان يُسارع إلى وعظ أي شخصٍ يضلَّ الطريق ولا يتقيد بتعاليم الشريعة الإسلامية.

عائلة البغدادي، تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا، وهى معروفة بنسبها والسلالة التي تنحدر منها. حيث ينحدرون بالفعل من سلالة النبي محمد، إلا أن بعض أقربائه شيعة، ولذا فنسب البغدادي حالة واحدة من الهويات الدينية المتعددة والمتداخلة في العراق، والتي تتناقض مع الشرخ المفترض القديم بين السُنة والشيعة. وقد قام تنظيم القاعدة بتفجير ضريح السامرائي، وهو جد للبغدادي، بعد سنوات إبان الغزو الأمريكي للعراق، في محاولةٍ لجعل هذا الانقسام واقعًا راسخًا.

كان ربُّ الأسرة، عواد، والد البغدادي، نشطًا في الحياة الدينية للمجتمع. وبدأ الأمر في المسجد، حيث كان والده يقوم بالتدريس، إذ حصل البغدادي في سن المراهقة على باكورة نشاطه كمدرّس، يقود أطفال الحي في ترديد تلاوة القرآن. وكانت هذه أول تجربةٍ له في مجال الخطابة والتعليم الديني. وحين كان يرتل القرآن، وهي مهنة تحظى بالمهابة في الإسلام،

امتلأ صوته الهادئ بالحياة، فنطق الحروف في نبرات ثابتة يتردد صداها. وكان يكرس ساعاتٍ لا تُحصى من وقته لإتقان التفاصيل الدقيقة لفن التلاوة والترتيل.

ورغم تديّن عائلة البغدادي، فقد انضم بعض أعضائها إلى حزب البعث، وهو منظمة اشتراكية مكرسة لهدف الأمة العربية الواحدة. ومع أن القادة البعثيين كانوا متساهلين مع التعبد الديني الخاص، لا بل حتى يشجعونه أحيانًا باعتباره متنفسًا للحماسة الدينية، إلَّا أنهم كانوا حذرين من النشاط الديني باعتباره يُشكل تهديدًا لحكمهم. وقد هيمنت الأفكار البعثية على الساحة السياسية العراقية وعلى أجهزة الدولة منذ أواخر الستينيات، مما دفع المواطنين الذين يريدون وظائف حكومية للانضمام إلى الحزب، بغض النظر عن قناعاتهم الشخصية.

خدم اثنان من أعمام البغدادي في أجهزة الأمن في عهد صدام، وأصبح أحد أشقائه ضابطًا في الجيش. كما خدم أخ آخر له في الجيش وقُتل خلال الحرب الضروس التي استمرت ثماني سنوات، عندما حارب العراق ضدَّ إيران في الثمانينيات، إلا أنه لم يخدم بسبب معاناته من قِصَر البصر.

هناك أدلة على أن العديد من أفراد أسرة البغدادي، وربما حتى والده، كانوا من السلفيين –حيث إن السلفية تيار قديم في الموصل، ومحمد بن عبد الوهاب، مؤسس السلفية السعودية، تلقى علومه الدينية فيها في القرن الثامن عشر.

في الثمانينات سعى صدام إلى استرضاء السلفيين من خلال تأسيس جامعة في العام ١٩٨٩ وإطلاق اسمه عليها، وهي جامعة صدام للدراسات الإسلامية، وهى التي سيحصل منها البغدادي فيما بعد على الدكتوراه، وكانت الجامعة مجرد واحدة من طرقٍ عديدة حاول فيها صدام استخدام الدين لتعزيز قبضته على المجتمع العراقي، كما شجع دراسة القرآن وترتيله، واعدًا باستخدام أموال الدولة لتدريب ٣٠٠٠٠ معلم للقرآن. حتى أنه تبرع بـ ٢٨ لترًا من دمه، وذلك لاستخدامها كحبرٍ في إعداد نسخة من القرآن، ليكون مقرها في مسجد أم المعارك.

عندما تخرج البغدادي من جامعة بغداد في العام ١٩٩٦، التحق بجامعة صدام للدراسات الإسلامية حديثة الإنشاء، حيث درس فيها لنيل شهادة الماجستير في تلاوة القرآن الكريم، وهو موضوعه المفضل. ومعارف عائلته البعثية ساعدته على الدخول في برنامج الدراسات العليا، الذي يتطلب الالتحاق به درجة عالية من الانتقائية. وكانت رسالة الماجستير التي قدمها البغدادي بمثابة تعليقٍ وشرح على نصٍ مجهول وغامض من العصور الوسطى حول تلاوة القرآن الكريم. وكانت مهمته التوفيق بين إصدارات مختلفة من المخطوطة. وهذه مهمة مملة، فالعمل فيها لا يتطلب سوى القليل من الخيال، ولا مناقشة لمحتوى المشروع، وحصل على درجة الماجستير بالفعل في العام ١٩٩٩، والتحق فورًا ببرنامج الدكتوراه في الدراسات القرآنية في جامعة صدام.

خلال فترة وجود البغدادي في كلية الدراسات العليا، أقنعه عمُّه، إسماعيل البدري، بالانضمام إلى جماعة الإخوان، وكان شقيقه الأكبر عضوًا فيها، وشيخه محمد حردان أيضًا، لكنه انجذب بسرعة بعدها نحو السلفيين.

تزوج إبراهيم بو بدري "البغدادي" من امرأتين وأنجب ٦ أطفال. وزوجته الأولى، أسماء، هي ابنة خاله. وتزوج الثانية، إسراء، في وقتٍ لاحقٍ بعد الغزو الأمريكي في العام ٢٠٠٣. وحجب زوجتيه بعيدًا عن أعين الناس، وهو نفسه كان منعزلًا ولم يختلط اجتماعيًا كثيرًا، مفضلًا قضاء الوقت مع عائلته في شقتهم الصغيرة بالقرب من مسجد الحاج زيدان في حي طوبجي المتواضع من بغداد.

كان المسجد أيضًا هو المكان الذي أتاح له أن ينغمس بممارسة هوايته الأخرى المفضلة – وهي لعبة كرة القدم. حيث كان للمسجد نادٍ لكرة القدم، وكان البغدادي هو نجمه، ويُعرف باسم "ميسي فريقنا"، في إشارة إلى ليونيل ميسي، نجم كرة القدم الأرجنتيني الشهير. ويتذكر زملاؤه أنه في كثيرٍ من الأحيان كان يفقد أعصابه عندما يفشل في إحراز هدف، كما كان يفقد أعصابه لدى رؤية ما كان يعتبره سلوكًا غير إسلامي.

في وقتٍ متأخرٍ من العام ٢٠٠٣، بعد أن هزم الأمريكيون جيش صدام ثم حلّوه، ساهم البغدادي في تأسيس جيش أهل السُنة والجماعة، وهي جماعة قاتلت القوات الأمريكية وحلفاءها المحليين في

شمال ووسط العراق.

بعد فترةٍ وجيزة، في فبراير ٢٠٠٤، ألقي القبض على البغدادي في الفلوجة أثناء زيارة صديقٍ له كان اسمه على قائمة المطلوبين من قبل أمريكا. وتم نقله إلى مركز الاعتقال في معسكر بوكا، وجرى تصنيفه في ملفات السجن بأنه "معتقل مدني".

خلال الأشهر العشرة التي مكثها في الحبس، لم يكشف البغدادي النقاب عن تشدده، وكرَّس نفسه ووقته للتثقيف الديني. وفي هذا السياق، يقـول أحد زملائه من السجناء أجرت صحيفة ذا غارديان مقابلة معه من دون ذكر اسمه: " كان البغدادي شخصًا هادئًا يتمتع بكاريزما. ويمكن أن تشعر بأنه كان شخصًا ذا أهمية". كما كان يؤم المصلين أثناء أداء الصلاة ويلقي خطب يوم الجمعة ويعطي دروسًا دينية للسجناء الآخرين.

مرة أخرى أدهش رفاقه في السجن – وساجنيه أيضًا دون شكّ – في ملعب كرة القدم. ومرة أخرى أيضًا جرت مقارنته بلاعبٍ أرجنتيني عظيم: فقد كانوا يسمونه "مارادونا "في معسكر بوكا.

إن العديد من البعثيين السابقين في بوكا، وبعضهم صادقهم البغدادي، عادوا إلى الساحة معه من جديد من خلال صفوف الدولة الإسلامية.

وبحلول الوقت الذي أفرج فيه عن البغدادي في ٨ ديسمبر ٢٠٠٤،

كان لديه جهاز رولودكس (Rolodex) افتراضي لإعادة الاتصال مع شركائه في المؤامرة وأتباعه ومريديه: لقد كتبوا أرقام هواتف بعضهم بعضًا على المطاط المرن لملابسهم الداخلية.

التقى البغدادي بجهاديين من دائرة الزرقاوي خلال الفترة التي قضاها في بوكا، وهو بلا شك قد انجذب إلى جماعة جهادية أكثر تطرفًا من مجموعته. وبعد إطلاق سراحه من بوكا، اتصل البغدادي هاتفيًا بأحد الأقارب في تنظيم القاعدة، الذي بدوره أوصله بالمتحدث باسم الجماعة في العراق. وأقنع هذا المتحدث البغدادي بالذهاب إلى دمشق لتنفيذ مهام لتنظيم القاعدة، مؤكدًا له أن بوسعه أيضًا الانتهاء من أطروحته لنيل الدكتوراه أثناء عمله معهم.

إن صلات البغدادي القبلية في العراق وعلاقاته مع الجماعات الجهادية الأخرى كانت مفيدة له، لأنه كان في عدة مناسبات قادرًا على مساعدة الجهاديين الأجانب على عبور الحدود السورية إلى وطنه العراق. وفي ذلك الوقت، كان الرئيس السوري، بشار الأسد، يغض الطرف عن قوافل المقاتلين الأجانب الذاهبين الى العراق، وذلك من أجل معاقبة الولايات المتحدة على غزوها البلاد. ولم يكن يعلم أن تلك القوافل نفسها سوف تنطلق في يوم من الأيام في الاتجاه المعاكس، بعد أن ثار الشعب على حكمه في العام ٢٠١١.

في العام ٢٠٠٦، كان تنظيم القاعدة في العراق يُشكِّل منظمة شاملة تندرج تحت مظلتها الجماعات الجهادية المقاومة للاحتلال الأمريكي.

وعندما قُتل الزرقاوي في غارةٍ جوية أمريكية في شهر يونيو، استمر خلفه، أبو أيوب المصري، وهو جهادي مصري، في تنفيذ الخطة. وأعلن عن تأسيس الدولة الإسلامية في شهر أكتوبر، وحلَّ تنظيم القاعدة في العراق، معلنًا أن جنود التنظيم هم الآن جزءٌ من الدولة الإسلامية. وتولى المصري منصب وزير الحرب، رغم أنه كان هو من يدير المنظمة الجديدة فعلًا. أما الأمير الفخري للمجموعة، أبو عمر، وهو عراقي، فكان رئيسًا صوريًا في البداية ليس إلا.

ظلَّ البغدادي مسئولا في هذه الفترة عن دعاية الدولة الإسلامية، وفي ١٣ مارس ٢٠٠٧، ظهر لمناقشة أطروحته لنيل الدكتوراه. وكان الموضوع يتعلق بنسخة نقدية أخرى لكتاب من العصور الوسطى عن التجويد وتلاوة القرآن – يدور البحث فيها عن قصيدة حول كيفية تلاوة القرآن. ولم يتمكن المشرف من الحضور بسبب العنف المحتدم في العراق، فأرسل ملاحظاته على الأطروحة، مشيرًا إلى بعض الأخطاء ومقترحًا بعض التعديلات. ولكنه عمومًا كان راضيًا عن عمل الطالب، وحصل البغدادي على درجة الدكتوراه في علوم القرآن بتقدير "جيد جدًا".

قام أبو أيوب المصري، بتعيين البغدادي مشرفًا على لجنة الشريعة، في هذا الوقت رفض العراقيون إمارة أبو أيوب المصرى، وتولى هو التوفيق بين الجانبين.

في أوائل العام ٢٠١٠، قبض العراقيون على واحدٍ من السعاة،

الذين يوصلون الرسائل داخل التنظيم، وتم تطويق بيت الطين خارج تكريت، حيث كان أبو عمر وأبو أيوب المصري يختبئان. فقام الاثنان بتفجير نفسيهما بدلًا من الاستسلام.

عقب وفاة قائدَيْ الدولة الإسلامية، وجد حجي بكر، وهو رئيس المجلس العسكري للدولة الإسلامية، نفسه فجأة في وضعٍ يمكنه من التحكم بعملية الخلافة. وسبق أن خدم حجي بكر كضابطٍ في جيش صدام، ثم قضى وقتًا في معسكر بوكا بعد الإفراج عن البغدادي، ولكن يُؤخذ عليه أنه خدم في نظام غير إسلامي، وبالتالي فلا فرصة أمامه للمنافسة على منصب القيادة العليا بنفسه. فاتخذ وضعًا يمكنه من أن يكون له التأثير الأول على اختيار الخليفة وأن يكون السلطة الفعلية وراء العرش. ولذلك تجاهل حجي بكر تعليمات بن لادن، ومن خلال استطلاعٍ أعده وقف على رأي ١١ عضوًا في المجلس الاستشاري حول تفضيلاتهم لاختيار الأمير. ولكن ورد أنه تلاعب بالنتائج من خلال كتابة رسالةٍ خاصة إلى كل واحدٍ منهم يقول له فيها إن الآخرين جميعهم يفضلون البغدادي.

انتخب المجلس الأمير الجديد للدولة الإسلامية بأغلبية ٩ إلى ٢. وعندها، اتخذ أبو بكر البغدادي، ٣٩ سنة، هذا الاسم الحركي الذي اشتهر به لاحقًا، تيمنًا بإيمانه ومسقط رأسه. فأبو بكر كان حمو النبي محمد، وأصبح أول خليفة في الإسلام بعد وفاة النبي. أما بغداد فكانت عاصمة أعظم خلافة في صدر الإسلام، وهي الخلافة العباسية. والعباسيون وصلوا إلى السلطة في القرن الثامن الميلادي باستخدام

دعاية ذكية مروعة وشبكات سرية لحشد الغضب الشعبي ضد النظام الحاكم في دمشق. ومن الواضح أن البغدادي كان يأمل في تكرار هذه الأحداث على الساحة نفسها.

بمباركة الأمير الجديد وامتنانه، شرع حجي بكر بتطهير صفوف الدولة الإسلامية من أي شخصٍ قادرٍ على تحدي سلطة البغدادي. وقد وصفه أفرادٌ من داخل الدولة الإسلامية بأنه "أمير الظل" و"الوزير الخاص" للأمير. وقام حجي بتسوية الحسابات، فاستبعد عشرات المنافسين وقضى عليهم، إما من خلال الترهيب أو الاغتيال، تمامًا كما فعل صدام سابقًا.

جاءت الاضطرابات المتزايدة في سوريا في العام ٢٠١١ لتساعد حجي والبغدادي على بناء التنظيم من جديد، ومنذ أوائل العام ٢٠١٤، كانت الدولة الإسلامية قد حققت مكاسب في غرب العراق بصورةٍ مطّردة. حتى دخل الموصل.